خطبة الجمعة

التي ألقاها أمير المؤمنين سيدنا مرزا مسرور أحمد أيده الله تعالى بنصره العزيز

الخليفة الخامس للمسيح الموعود والإمام المهدي عليه السلام

بتاريخ ٢٠٢٥/٩/١٩

في المسجد المبارك بإسلام آباد في بريطانيا

*****

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمّدًا عبده ورسوله. أما بعد فأعوذ بالله من الشيطان الرّجيم. ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾، آمين.

كان الحديث في الخطبة الماضية جاريا عن غزوة الطائف. وأنه لما ذهب أحد الصحابة أثناء ذلك للتفاوض مع أهل الطائف ضمنوا له أنهم لن يضروه شيئا. ولكنه لما اقترب من الحصن نقضوا العهد وقتلوه. ورغم هذا الغدر من أهل الطائف، لم يتخل النبي ﷺ عن محاولات الصلح. فأرسل إليهم حَنْظَلَةَ بن الرَّبِيعِ رضي الله عنه. وعندما اقترب حنظلة من الحصن وطلب التفاوض، خرج بعضهم للحديث. فقال لهم حنظلة: هل تريدون الصلح أم لا؟ لكنهم بدلاً من الرد، هاجموه وحاولوا أخذه إلى داخل الحصن. فقال النبي ﷺ: من ينقذ حنظلة؟ سيكون له أجر جميع المجاهدين. فهرع العباس رضي الله عنه وأنقذ حنظلة من قبضة المشركين، وعاد به سالِما بينما رماهم العدو بالحجارة من الحصن، لكنهم نجوا من القصف.

كما ذُكر سابقًا، كانت لأهل الطائف وهوازن علاقات عائلية واقتصادية وثيقة مع أهل مكة، خاصة مع قريش، بما في ذلك علاقات الزواج. لذا، دخل أبو سفيان بن حرب ومُغيرة بن شُعْبة رضي الله عنهما إلى الحصن محاولَين عقد الصلح، لكنهما لم ينجحا. غير أن أصحاب الحصن نقلوا طلب أهل الطائف إلى النبي ﷺ بألا يُتلف كرومهم لوجه الله ونظرا إلى صلة الرحم. (علما بأنهم لم يعملوا بالميثاق ثم طلبوا أن يُرحَموا) وقد سبق أن استجاب النبي ﷺ لهذا الطلب وأمر بعدم قطع الكروم. هذا الأمر يُظهر جانبًا فريدًا من سيرة النبي ﷺ، حيث أبدى تسامحًا عظيمًا ورحابة صدر، رغم الحصار المستمر إلى عدة أيام، الأمر الذي كان بمنزلة استراتيجية حربية كان

من شأنها أن تُرجّح الكفة لصالح المسلمين (لو أمر ﷺ بقطع الكروم). لكنهم عندما ناشدوا بالله وبصلة الرحم، قبل ﷺ طلبهم مع أنه كان في قبول طلبهم خسارة حربية كبيرة ظاهريًا.

في هذه المناسبة، أعلن النبي ﷺ أن أيَّ عبد ينزل من أسوار الحصن وينضم إلى المسلمين سيُعتق. فنزل ثلاثة وعشرون عبدًا وانضموا إلى المسلمين، الأمر الذي أثار استياء أهل الطائف. أعتق النبي ﷺ هؤلاء العبيد جميعًا وسُلِّم كل واحد منهم إلى مسلم وكلَّفه بكفالته.

أوصى النبي ﷺ المسلمين الذين كلِّفوا رعاية هؤلاء العبيد بتعليمهم الدين تعليمًا حسنًا. وبعد فترة، عندما أسلم أهل الطائف، طلبوا من النبي ﷺ إعادة هؤلاء العبيد إليهم لكنه رفض طلبهم. وقد اشتهر بعض هؤلاء العبيد في تاريخ الإسلام بصلاحهم وتقواهم، ومنهم أبو بكرة رضي الله عنه.

وفي مناسبة أخرى استأذن عُيينةُ بن حِصن الفَزّاري النبيَّ ﷺ لدخول الحصن ودعوة بني ثقيف إلى الإسلام.

كان عيينة بن حصن زعيم بني فزارة في غزوة الأحزاب من قِبل الكفار، وبعد هزيمة الكفار في غزوة الأحزاب خطط عُيينة لمهاجمة المدينة، فخرج النبي ﷺ لصد هجومه وأجبره على التقهقر. أسلم عيينة قبل فتح مكة وشارك فيه (أي عند فتح مكة كان مسلما ظاهريا) وكذلك اشترك في غزوتَي حنين والطائف. لكنه واجه الابتلاء وارتد في عهد أبي بكر رضي الله عنه مع بقية المرتدين وانحاز إلى المتنبي والمتمرد طُليحة وبايعه. وحارب معه ضد جيوش المسلمين. وبعد إصابته بهزيمة نكراء وسجنه، عُرض على أبي بكر رضي الله عنه فأبدى ندمه، فعفا عنه أبو بكر فأسلم عيينة ثانية قائلاً: ما كنتُ مؤمنًا حقًا من قبل. وقد ورد عنه أنه كان شخصا متعجرفا وسيئ الخُلق، ومع ذلك كان قائدًا ومقاتلاً معروفا في قبيلته. وقد ورد أن النبي ﷺ وصفه بـ"الأحمق المطاع"، أي هو قائد مطاع لكنه أحمق.

أذن النَّبِيُّ ﷺ لِعُيَيْنَةَ، فَذَهَبَ إِلَى أَهْلِ الحِصْنِ وَقَالَ لِبَنِي ثَقِيفَ (بَدَلًا مِنْ دَعْوَتِهِمْ إِلَى الْإِسْلَامِ): تَمَسَّكُوا بِحِصْنِكُمْ بِشِدَّةٍ، فَحَالُنَا أَسْوَأُ مِنْ حَالِ الْعَبْدِ.

ووردَ فِي رِوَايَةٍ قوله: لَا تَتْرُكُوا الْحِصْنَ أَبَدًا، وَلَا تَتَأَثَّرُوا بِأَيِّ شَيْءٍ ولا تقلقوا. عِنْدَمَا رَجَعَ عُيَيْنَةُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، سَأَلَهُ: يَا عُيَيْنَةُ! مَا الَّذِي قُلْتَ لَهُمْ؟. قَالَ: نصحتُهم بقبول الإسلام ودعوتهم إِلَى الدِّينِ، وَخوّفتهم مِنَ النَّارِ، وَأَرْشَدْتُهُمْ إِلَى طَرِيقِ الْجَنَّةِ !

أَخْبَرَ اللَّهُ عز وجل رَسُولَهُ ﷺ بِذَلِكَ بِالْوَحْيِ، فَقَالَ له النَّبِيُّ ﷺ: أَنْتَ تَكْذِبُ، لَقَدْ قُلْتَ لَهُمْ كَذَا

وَكَذَا!، وَكَرَّرَ النَّبِيُّ ﷺ كلّ مَا قَالَهُ عُيَيْنَةُ هُنَاكَ. فاحتار عيينة بسماع ذَلِكَ وقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْتَ صَادِقٌ. أَسْتَغْفِرُكَ أَنْتَ وَاللَّهَ تَعَالَى عَلَى هَذا التصرف. (لأنه لم يكن ثابتا وقائما على الإيمان إلى الآن)

نَظَرًا لِوَضْعِ الْحِصَارِ، اسْتَشَارَ النَّبِيُّ ﷺ نَوْفَلَ بْنَ مُعَاوِيَةَ الدَّيْلِيَّ ﷺ، فَقَالَ: هَذَا كَالثَّعْلَبِ الَّذِي انْدَسَ فِي جُحْرِهِ، إِنْ قُمْنَا عَلَيْهِ أَخَذْنَاهُ، وَإِنْ تَرَكْنَاهُ لن يقدر على إيذائنا ويعود إلى جحره.

عندها قَرَّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِنْهَاءَ الْحِصَارِ وَأَمَرَ عُمَرَ ﷺ أن يعلن فِي النَّاسِ أننا سنرجع غدا بإذن الله.

يبدو أن النبي ﷺ لم يرفع الحصار نتيجة المشورة فقط، بل كان هناك توجيه أو إشارة خاصة له من الله تعالى. وإلا فإن هذه كانت المرة الأولى في حملاته ﷺ العسكرية التي عاد فيها مهملا فتحاً مهماً وضرورياً دون إتمامه ظاهرياً. مهما قال المعلقون وكتّاب الروايات، فإن ما رأيناه في التاريخ هو أن الله تعالى قد منح النبي ﷺ انتصاراً ونصراً استثنائياً في معارك أكثر صعوبة واستحالة من هذه. وأن انتصاره ﷺ على بني قريظة وفي خيبر كانت أمثلة واضحة على ذلك. وكان الانتصار في غزوة حنين قد سبق منذ زمن قريب، فلا يمكن نسيانه؟ كان بعض أهل مكة متأكدين من هزيمة رسول الله ﷺ في حنين. وانضمت مجموعة منهم في هذه المناسبة لرؤية هزيمته ﷺ، ولكن حتى في ذلك الوقت حوّل الله تعالى هزيمة محققة إلى فتح مدهش واستثنائي وتاريخي.أما في الطائف فكان الجيش المنهزم والفار بنفسه خائفا مختبئا ومتواريا. في ضوء هذه المشاهد من النصر الإلهي السابق، لم يكن فتح الطائف أيضاً صعباً أو مستحيلاً، لكن النبي ﷺ قبِل هذه الهزيمة الظاهرية وأعلن إنهاء الحصار.

إذن، نرى في هذه الوقائع جانباً مشرقاً جداً من سيرة النبي ﷺ، وهو أن هذه الحملة العسكرية أيضاً لم تكن نتيجة ثورة النفس، ولم تكن من أجل الحصول على الغنائم أو فتح الأراضي، بل كان كل قول النبي ﷺ وفعله خاضعا لمشيئة الله العليم الخبير. كانت حياته كلها مصداقاً لآية: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

حدث في مناسبة حصار الطائف أمران يتضح منهما بوضوح أن النبي ﷺ كان قد تلقى التوجيه من الله تعالى لإنهاء هذا الحصار، فأعلن إنهاءه فوراً.

في هذا السياق نجد ذكر رؤيا النبي ﷺ. فقد كتب ابن هشام أنه في مناسبة حصار الطائف

قال رسول الله ﷺ لأبي بكر ﷺ: يا أبا بكر، رأيتُ اليوم في المنام أن إناءً مملوءاً بالزبدة قد أُهدي إليّ، ثم جاء ديك فنقر الإناء بمنقاره فأسقطه. فقال أبو بكر ﷺ: أظن أنك لن تحصل هذه المرة من ثقيف ما تريده.

أي أن هذا الحصار لن يسفر عن صالحنا كما نريد ولن يُكتب لنا فيه النصر. فقال رسول الله ﷺ أنا أيضا أرى أن إحراز النصر مستحيل حاليا.

وَكَذَلِكَ فِي رِوَايَةٍ أُخْرَى، أَنَّ خَوْلَةَ بِنْتَ حَكِيمٍ [وَقَدْ جَاءَ اسْمُهَا خَوَيْلَةُ أَيْضًا]، زَوْجَةَ عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ ﷺ، قَالَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: "يَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، إنْ كتب اللَّهُ لك النصر في الطَّائِفِ، فَأَعْطِنِي حِلْيَةَ بَادِيَةَ بِنْتِ غَيْلَانَ أَوْ فَارِعَةَ بِنْتِ عَقِيلٍ؟"، لِكونهما أكثرَ نِسَاءِ ثَقِيفٍ مَالًا وَحُلِّيًا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "يَا خَوْلَةُ، وَإِنْ لَمْ يُؤْذَنْ لِي فِي فَتْحِ ثَقِيفٍ؟ ."فخَرَجَتْ خَوْلَةُ وَذَكَرَتْ ذَلِكَ لِعُمَرَ ﷺ، فَجَاءَ عُمَرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَقَالَ: "يَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، مَا هذا الذي تَقُولُه خَوْلَةُ؟ تَقُولُ إِنَّكَ قُلْتَ لَهَا كَذَا؟". قَالَ: "نَعَمْ، أنا قُلْتُ ذَلِكَ". فَفَهِمَ عُمَرُ الأمرَ فَوْرًا وَقَالَ: "أَلَمْ يُؤْذَنْ لَكَ فِي ذلك؟". (أي في الانتصار أو في مواصلة الحصار) فَقَالَ: "لَا". فَقَالَ عُمَرُ ﷺ: "فَهَلْ أنادي بين النَّاسِ بالرحيل؟". قَالَ: "نَعَمْ". وبعد الإذن النبوي نادى عُمَرُ ﷺ بالرحيل والعودة.

وعند الإعلان بالْعَوْدة، قال البعض "كيف نعود دون انتصار؟" يَبْدُو أَنَّ هَذَا كان رَدّ فِعْلِ بَعْضِ الشَّبَابِ الْمُتَحَمِّسِينَ. فذَهَبُوا أولاً إِلَى أَبِي بَكْرٍ ثم إلى عُمَرَ رضي الله عنهما يَطْلُبُون مِنْهُمَا أَنْ يلتمسا من النَّبِيِّ ﷺ مُواصَلَةِ الْحِصَارِ حَتَّى الْفَتْحِ، لَكِنَّهُمَا قَالَا: "مَا قَرَّرَهُ النَّبِيُّ ﷺ هُوَ الصَّوَابُ". (إذًا رفض أبو بكر وعمر أن يقولا هذا للنبي ﷺ). فَذَهَبَ هَؤُلَاءِ الشَّبَابُ الْمُتَحمسونَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَقَالُوا بِعَاطِفَةٍ شَدِيدَةٍ: "يَا رَسُولَ اللَّهِ، سَنَقَاتِلُ!" فَقَالَ: "حَسَنًا، غدًا تقَاتِلُون". وفي الغَد خرج هؤلاء لِلْقِتَالِ، ولكن ما كان نصيبهم إلا الجراح. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "إِنْ شَاءَ اللَّهُ غَدًا نَرْحَلُ"، فسُرّ هؤلاء جميعا، فلما رأى النَّبِيُّ ﷺ أنهم قد غيّروا رَأْيهمْ تَبَسَّمَ.

قُتل في هذه الغزوة ثلاثة من الكفار، لكن ليست هناك تفاصيل عن جرحاهم أو عن مزيد من قتلاهم، لأنهم ظلوا متحصنين بالحصن. ولم يُعرف عدد محدد لجرحى المسلمين أيضا، غير أن هناك شيئا من التفصيل عن بعض الذين أصيبوا بالجراح بسهام المشركين، ومنهم أبو سفيان بن حرب، فقد أصاب سهمٌ عينه، فخرجت حدقته، فجاء رسولَ الله ﷺ حاملا إياها في يده، وقال: "يا رسول الله، هذه عيني قد تلفتْ في سبيل الله". فقال النبي ﷺ: "إن شئت دعوت

لك فعادت عينك إلى مكانها، وإن شئت فالجنة تنتظرك". وفي رواية أخرى: "إن شئت فعينك، وإلا فعينٌ في الجنة"، أي عينُ رحمة الله هناك. علمًا أن العين بالعربية تعني العين التي نرى بها، وأيضا نبْع الماء.

فقال أبو سفيان: بل أريد الجنة. ثم رمى عينه من يده. هذا هو أبو سفيان الذي كان عدوًا لدودًا للإسلام حتى فتح مكة، وكان قائد جيش الكفار في غزوة أحد، أما الآن بعد إسلامه فقد أصبح سباقا إلى التضحيات. ومن الغريب أن عينه الأخرى أيضا تلفت في معركة اليرموك.

كذلك نجد من بين الجرحى ذكْرَ صحابي آخر، وهو عبد الله بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، ولم يندمل جرحه فترة طويلة حتى كان به موته حيث توفي بسببه في عهد خلافة والده أبي بكر رضي الله عنهما.

واستُشهد في هذه الغزوة اثنا عشر صحابيًا، وأسماؤهم هي: سعيد بن سعيد بن العاص، عُرْفَطة بن جنّاب، عبد الله بن أبي أمية، عبد الله بن عامر، سائب بن حارث، وأخوه عبد الله بن حارث، جُلَيْحَة بنُ عبد الله، ثابتُ بنُ الجِذْع، حارث بن سهْل، مُنْذِر بن عبد الله، رُقَيْم بن ثابت، وعبد الله بن أبي بكر (الذي توفي لاحقًا) رضي الله عنهم أجمعين.

في هذه الغزوة كانت مع النبي ﷺ اثنتان من أزواجه المطهرات، أُمُّ سَلَمة وزينبٌ رضي الله عنهما. أُقيمت لهما خيمتان، وكان النبي ﷺ يؤدي الصلوات بينهما خلال الحصار.

أما مدة حصار النبي ﷺ للطائف فاختلفت الروايات بشأنها. قال بعضهم إن الحصار استمر لأكثر من عشر ليال. وقال ابن هشام يقال: استمر سبع عشرة ليلة. وقال البعض استمر عشرين يومًا، وقال غيره: استمرّ أكثر قليلا من عشرين ليلة. وفي رواية أخرى: حاصر النبي ﷺ أهل الطائف قرابة ثلاثين ليلة. وفي صحيح مسلم رواية عن أنس رضي الله عنه أننا حاصرناهم أربعين ليلة.

على كل حال، لما حان الرحيل أمر النبي ﷺ المسلمين أن يعودوا مرددين: آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ.

وقيل للنبي ﷺ أن يدعو على بني ثقيف، لكن انظروا إلى سعة رحمته وتسامحه فإنه رغم عودته من هناك دون أن يحقق هدفه في الظاهر إلا أنه بدلاً من الدعاء عليهم دعا لهم قائلاً: " اللَّهُمَّ اهْدِ ثَقِيفًا وَأْتِ بِهِمْ مُسْلِمِينَ".

ثم عندما ركب النبي ﷺ راحلته عائدا دعا قائلا: "اللَّهُمَّ اهْدِهِمْ، وَاكْفِنَا مُؤْنَتَهُمْ.[1]" ذلك لأن هدفه الأساسي كان هداية الناس إلى خالقهم. فاستجاب الله دعاءه، إذ لم يمر عام حتى أسلم أهل الطائف جميعًا، وذلك في رمضان من العام التاسع الهجري.

وقال حضرة المصلح الموعود بهذا الصدد ذات مرة: سار النبي ﷺ إلى الطائف، وهي المدينة التي طرد منها أهلُها محمدًا رسول الله ﷺ وهم يرشقونه بالحجارة. قام ﷺ بحصار هذه المدينة بعض الوقت، لكن لما أشار عليه البعض أنه لا داعي لإضاعة الوقت في حصارها، فإن هذه المدينة وحدها لا تستطيع فعل شيء في مواجهة العرب كلهم، فإنه ﷺ رفعَ عنها الحصار وعاد، ولكن بعد فترة أسلم أهل الطائف أيضًا".

وورد بشأن تقسيم أموال الغنيمة بحُنين أن النبي ﷺ وصل في الخامس من ذي القعدة من الطائف إلى الجِعْرانة حيث كان الأسرى والغنائم قد جُمعا. وكان من حسن معاملة النبي ﷺ للأسرى أنْ أمر ببناء مساكن مؤقتة لحمايتهم من البرد والحر.

ورد بشأن تفاصيل أموال الغنيمة أن الأسرى كانوا ستة آلاف (وفي رواية أنهم كانوا ثمانية آلاف) فجُهّزتْ لهم مساكن. إن الأعداء يخربون ويهدمون بيوت الآخرين في الحروب كما تفعل إسرائيل اليوم، ولكن الرسول ﷺ أعد المساكن لأولئك الأسرى الذين بلغ عددهم ستة آلاف أو ثمانية آلاف كما ذكرت.

وكان في الغنائم ٢٤ ألف جمل، وأكثر من ٤٠ ألف شاة وماعز، و٤ آلاف أوقية من الفضة، أي ما يقارب ٤٩٠ كيلوغرامًا. لم يقع مِن قبل في أيدي المسلمين غنائم بهذه الكمية، ومع ذلك كان النبي ﷺ حريصًا على تربية أصحابه وفي مثل هذه المناسبات حيث أعلن قبل توزيع الغنائم أنه ليس حقه في هذا المال، سوى الخُمْس، وهذا الخمسُ أيضا سيعود إليهم في النهاية. ثم قال: "مَن كان عنده من هذه الغنائم إبرة أو خيط أو شيء أصغر من ذلك، فليردّه. احذروا الخيانة، فإنها ستكون وصمة عار وذلًّا للخائن يوم القيامة". بعد سماع هذا الإعلان، جاء أحد الصحابة إلى النبي ﷺ بحبل مفتول من وبر الإبل، وقال: "يا رسول الله، أخذت هذا الخيط من الغنائم لخياطة سرج ممزق لي". وكان صحابي آخر قد أخذ من الغنائم إبرةً وأعطاها زوجتَه، فما إنْ سمع هذا الإعلان حتى ذهب إليها وأخذ الإبرة منها وأعادها إلى الغنائم. ولما بدأ النبي

---

[1] اكْفِنَا مُؤْنَتَهُمْ: اصرف عنا شرهم وما يترتب علينا من مؤنة ومشقة في قتالهم أو دفعهم.

ﷺ بتوزيع الغنائم بدأ بتأليف قلوب بعض الناس.

كان هؤلاء كبار العرب الذين أعطاهم، وكانوا يتمتعون بالمكانة العالية في قبائلهم. فمنحهم النبي ﷺ عطايا لتأليف قلوبهم. فأعطى بعضهم مئة بعير، وبعضهم خمسين، بالإضافة إلى الفضة والعبيد.

ورد في إحدى كتب السيرة: أن أبا سفيان بن حرب أُعطي مائة بعير. فلما قدِم أبو سفيان على رسول الله ﷺ، رأى بين يديه كومًا من الفضة، فقال متعجبًا: يا رسول الله، لقد أصبحتَ أغنى قريش! فتبسم النبي ﷺ، وأمر أن يُعطى أبو سفيان أربعين أوقية من الفضة ومائة بعير. فقال أبو سفيان: يا رسول الله، أعطِ ابني يزيدًا أيضًا. فأمر له النبي ﷺ بأربعين أوقية من الفضة ومائة بعير. (كان هذا يزيد ابنَ أبي سفيان، أما يزيد النجس المعروف في التاريخ فهو حفيد أبي سفيان، أي ابن معاوية.) ثم قال أبو سفيان: يا رسول الله، أعطِ ابني الآخر معاوية. فأمر له النبي ﷺ كذلك بأربعين أوقية من الفضة ومائة بعير. فقال أبو سفيان عند ذلك: بأبي أنت وأمي يا رسول الله! ما أكرمك! لقد قاتلتك فوجدتك خير مقاتل، ثم صالحتك فوجدتك خير مصالح. جزاك الله خيرًا.

كان من أشراف مكة ووجهائها حَكيم بن حِزام، أسلم يوم فتح مكة. وأعلن رسول الله ﷺ حينها: "من دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن". وكان حكيم ابن أخي السيدة خديجة رضي الله عنها. وأعطاه النبي ﷺ مئة من الإبل. قال حكيم بنفسه: طلبتُ منه مئة أخرى فأعطاني، ثم طلبتُ ثالثة فأعطاني كذلك. فقال لي رسول الله ﷺ: "يا حكيم، إن هذا المال خَضِرٌ حُلْو، فمن أخذه بسخاوة نفس بُورك له فيه، ومن أخذه بحرص وطمع لم يُبارك له فيه، كمن يأكل ولا يشبع. واليد العليا خير من اليد السفلى." يقول حكيم: فأثرت فيّ نصيحة رسول الله ﷺ فقلت في الحال: "يا رسول الله، والذي بعثك بالحق، لا أرزأ أحدًا[٢] شيئًا بعدك حتى أفارق الدنيا". وتذكر بعض الروايات أنه ردَّ حتى ما أخذه من الإبل المئتين. وظل على عهده هذا مدى حياته، فلم يسأل أحدًا شيئًا. حتى إن أبا بكر الصديق رضي الله عنه في خلافته كان يعرض عليه العطاء فيأبى. ثم جاء عهد عمر رضي الله عنه، وكان يوزع العطاء من أموال الفتوحات، فدعاه ليأخذ نصيبه فأبى أيضًا. عندها خاطب عمر الناس قائلًا: "اشهدوا أيها الناس أني عرضت حقه فأبى

---

[٢] لا أرزأ أحدا : لا أنقص ماله بالطلب منه.

أن يأخذه."

كان من الذين نالوا من جود رسول الله ﷺ وعطائه، صفوان بن أمية، أحد سادة مكة. وهو نفسه الذي استعار منه النبي ﷺ الدروع والسلاح في غزوة حنين، وكان حينها ما زال مشركًا، بل وشارك في الغزوة على هذه الحال. وفي بعض الروايات أنه خرج آملا أن يجد فرصة لقتل النبي ﷺ أو أن تُمنى جموع المسلمين بالهزيمة، لكن قلبه بدأ يتغير أثناء المعركة. وحين جاء وقت تقسيم الغنائم، أعطاه النبي ﷺ مئة بعير، وبحسب رواية صحيح مسلم ثلاثمئة بعير. وفي رواية أخرى أن النبي ﷺ مرّ في تلك الأيام بوادٍ قد امتلأ بإبلٍ وغنم من الغنائم، فرآه صفوان فأخذ يتعجب من كثرتها. فقال له النبي ﷺ: «يا أبا وهب» (وكانت كنيته)، «أعجبك هذا الوادي؟» قال: نعم. قال: «هو لك». فقال صفوان من فوره: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله، فما يعطي هذا العطاء إلا نبي. وفي رواية أخرى يرويها صفوان نفسه: أن النبي ﷺ ما زال يعطيه من غنائم حنين حتى صار أحبَّ الناس إليه بعدما كان أبغض الناس إليه.

الحاصل أن النبي ﷺ أعطى كثيرًا من سادة العرب، حتى جاوز عددهم الخمسين. ثم أمر ﷺ زيد بن ثابت أن يدعو بقية الناس، فقسّم بينهم الغنائم، فكان نصيب كل واحد أربعة من الإبل أو أربعين شاة. وهكذا قسّم ﷺ كل ما غنم المسلمون في حنين، وهو أعظم غنيمة حصلوا عليها حتى ذلك الحين.

وهنا يبرز جانب عظيم من سيرته ﷺ؛ وهو أن أعداء الإسلام يتهمون أن النبي والمسلمين إنما خاضوا الحروب طلبًا للمال لما كانوا فيه من فقر وحاجة. ولو كان في هذا القول شيء من الحقيقة، لكان تقسيم غنائم حنين على وجه آخر. لكننا نجد أن النبي ﷺ أعطى النصيب الأكبر —بل كله بحسب بعض الروايات— لغير المسلمين ولتأليف قلوب قريش وسادات العرب، بينما لم يُعطِ الأنصار شيئًا رغم وفائهم وتضحياتهم، كما سيرد بيانه لاحقًا.

لقد بين النبي ﷺ حكمةً في إعطاء الأموالِ لقريش قائلًا: «إِنِّي أُعْطِي قُرَيْشًا أَتَأَلَّفُهُمْ، لِأَنَّهُمْ حَدِيثُو عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ» أي: إني بإعطائهم المال أعمل على تأليف قلوبهم، لأن قطع صلتهم بالكفر لم يمضِ عليه زمن طويل وإيمانهم لم يكن قويًّا بعد. وفي رواية أخرى في صحيح البخاري قال ﷺ: «إِنَّ قُرَيْشًا حَدِيثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ وَمُصِيبَةٍ، وَإِنِّي أَرَدْتُ أَنْ أَجْبُرَهُمْ وَأَتَأَلَّفَهُمْ» أي أن عهد الكفر والهلاك الذي كانوا فيه قد مرَّ للتوّ حديثًا؛ ومرادي أن أُعوِّضَهم عن خسارتهم

وأواسيهم. وبعد ذلك ظهرت آثارُ هذه الحكمةِ في توزيع الأموال والعطايا، فصار الذين كانوا يتوقون إلى قتل النبي ﷺ أكثر الناس تفضيلاً ومحبةً له ﷺ في الدنيا كلها. وأصبح الذين كانوا مستعدين سابقًا للتضحية بكل شيء لإنهاء الإسلام، صاروا الآن مستعدّين للتضحية بأنفسهم لحماية الإسلام والنبي ﷺ. والعديد منهم كانوا من الذين نالوا بعدها درجة الشهادة في غزوات الإسلام، وكان إسلامهم إسلامًا حسنًا.

وفي هذه المناسبة احتجَّ بعض المنافقين على توزيع الأموال وتصرفوا بوقاحةٍ وتعدٍّ، واتّهموا النبي ﷺ بأنه -والعياذ بالله- لم يتصرَّف بعدلٍ أو بحسب مرضات الله. فلما سمع رسول الله ﷺ ذلك احمرَّتْ وجنتاه وقال: «لو أنّ الله ورسولَه لم يأخذا بالعدل فمن يأخذ بالعدل؟» ثم قال: "رحم الله أخي موسى، لقد أُوذي بأكثر من هذا فصبرَ".

ثم وقف رجل آخر يُدعى ذو الخويصرة أمام النبي ﷺ وقال: يا محمد، ما رأيتُ منك اليوم ما قد رأيت. فقال: "وماذا رأيت؟". قال: لم تعدل. فقال النبي ﷺ: "ويلك! إن لم أكن عادلا فَمن يكون؟". فقام عمر وخالد بن الوليد وقالا: «إن تأذن نضرب عنقَهُ.» فقال النبي ﷺ: "لا، لعله يصلي". (لم يكن هذا يقينا أنه يصلي بل كان مجرد احتمال وشك، فقال: ربما هو يصلي، فكيف أقول: اقطع عنقه؟) ثم قال خالد: «هل يمكن لمصلٍّ أن يقول ما ليس في قلبه؟» فردَّ النبي ﷺ: "يا خالد، لم أؤمَر بأن أشق قلوب الناس أو صدورهم". وقال أيضًا: «إن هذا وأصحابه سيقرؤون القرآن فلا يتجاوز حلوقهم، (أيْ إيمانهم إيمان سطحي) وسوف يخرجون من الدين كما يخرج السهمُ من الصَّيد بحيث لا يبقى أثرٌ للدم".

"ستحقرون صلواتكم وصيامكم مقابل صلواتهم وصيامهم"، يعني ظاهرا سيطيلون الصلوات وسيتشددون في الصوم أيضا. هذا ما نراه في هذه الأيام في أعمال كثير من المسلمين خاصة ممن يُدعون علماء. هذا ما يحدث في هذه الأيام، وقد تنبأ ﷺ سلفا. يقول الشارحون إن هذا الشخص أصبح من مؤسسي فتنة الخوارج. وظهرت هذه الطائفة في زمن علي ؓ، فقاتلهم علي ؓ. وكانوا كما وصفهم النبي ﷺ تماما. يقول سيدنا المصلح الموعود ؓ:

جاء رجل يدعى ذا الخويصرة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد إني رأيت ما فعلت اليوم. فقال: "ماذا رأيت؟" قال: "رأيت أنك ظلمت ولم تعدل. (والعياذ بالله) فقال ﷺ: "ويْلَكَ! ومَن يَعْدِلُ إذَا لَمْ أَعْدِلْ؟" فقام الصحابة بحماس شديد. ولَمّا خرج ذلك الرجل من المسجد قال

بعضهم: إنه يستحق القتل، هل تأذن لنا يا رسول الله لنقتله. (في هذه الأيام يتشدق الناس كثيرا عن إهانة الرسول ﷺ، فليتأملوا في هذا الموضوع).

قال ﷺ: إذا كان ملتزما بالقانون فأنى لنا أن نقتله؟ يعني إنه يتمسّك بقواعدنا وقانوننا فلا داعي لقتله.

فقال الصحابة: يا رسول الله إنه يُظهر شيئا ويُبطن شيئا آخر، أفلا يستحق عقابا؟ فقال ﷺ: إني لم أؤمر أن أشق عن صدور الناس، بل أُمرت أن أعاملهم بما يظهرون. ثم قال ﷺ، هذا الرجل وأشياعه سيتمردون يوما ضد الإسلام. أنا لن أعاقبهم الآن ولكنهم سيُعاقبون عندما يتمردون. ففي زمن علي ﷺ كان هذا الرجل وأهل قبيلته من زعماء هؤلاء المتمردين الذين تمردوا ضد علي ﷺ، وهم معروفون إلى اليوم باسم الخوارج. والباقي لاحقا بإذن الله.